المقاربة البنوية العربيّة بين عموميّة التنظير وخصوصيّة التجريب

عاشور توامة*

الملخص:

يندرج هذا البحث ضمن مجال **(نقد النقد)**، لأنّه يتناول بالدراسة والتحليل الأعمال النقدية الّتي اشتغلت على نصوص المنجز الإبداعي العربي الحديث من منظور المقاربة البنوية، لذلك يعتمد البحث قراءة وصفية تحليلية، تهتمّ بالأسس النظرية والممارسات النقدية، ويتمّ تقويم ومقاربة هذه النتاجات النقدية استنادا إلى الأصول المنهجية للبنوية، في مصادرها المرجعية الأساسية، من خلال عمومية التنظير وخصوصية التجريب، مما يُفسح المجال الواسع لتقديم ملاحظات جزئية متّصلة بمدى تمثّل الناقد العربي للمفاهيم الأساسية للمنهج البنوي، وقد تمّ في آخر البحث استنتاج خلاصة عامّة، تُمثّل تجربة الناقد العربي في مدى استيعابه للمنهج البنوي مع بعض إبراز جملة من المنطلقات والحلول المقترحة لكيفية تطبيق المناهج الأحادية في مقاربة النصوص الأدبية وتحليلها.

Abstract:

This research falls within the field of (criticism of criticism), due to it deals with studying and analyzing of criticized works that worked on modern Arabic texts of creative achievements from the perspective of structural approaching,

Thus, the research depends on descriptive and analytical reading, which concerns with the theoretical basis and criticism practices by evaluating and approaching criticized results based on methodology essentials for constitution in their basic reference resources, through theorizing generality and privacy experimentation.

This opens a broad area to provide partial notes Related to the extent of representing Arab critic of basic concepts of constitutional approaching, and we realized in the end of this research a general summary, it represents the experiment of the Arab critic in its absorption extent of constitutional approaching with some highlighting a number of perspectives and proposed solutions in how to apply single constitutions in approaching and analysis literary texts.

حظي النّظر في النص من وجهة المقاربة البنوية بنصيب وافر من اهتمام

* أستاذ مساعد قسم أ، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ميلة.

الدّارسين العرب، فعدا الفصول المعقودة في كتب مختلفة، والمقالات المنشورة في مجلات مختصة، فإننا نقف على مجموعة من الكتب الكاملة والمتضمنة كلمة بنيوية أو بنائية جزءا من تركيبة عنوانها، ولا يهمنا الوقوف على الجزئيات الواردة في هذه الدراسات بقدر ما يهمنا مسحها من وجهة تأليفية، نستقرئ بمقتضاها تصورهم للمقاربة البنوية وطريقة معالجتهم من منطلق عمومية التنظير وخصوصية التجريب.

عودا على بدء، ما هي البنوية وما هو النقد البنوي؟ وهل توجد مقاربة بنوية عربية؟ وإلى أي مدى نجحت هذه المقاربة أو فشلت؟ وماهي المعايير والمرتكزات الّتي تقوم عليها، وتستند إليها في مقاربة النص الشّعري؟ وهل وفق النقد العربي البنوي في التطبيق مثلما وفق في التنظير؟ ومن هم أبرز النقاد الذين حاولوا استقبال هذا الوافد الغربي المنهجي لقراءة النص الإبداعي؟

هذه الأسئلة وغيرها سيحاول هذا البحث الإجابة عنها بكل موضوعية وأمانة علمية، عسى أن تجد صدى لها لمن يضيف إليها أو يُصوّب ما حاد عن حقيقتها.

1.مفهوم وطبيعة البنوية في النقد الأدبي المعاصر

إن طبيعة هذا البحث تقتضي منا عدم الدخول في التفاصيل التّاريخية لنشأة البنوية والفكر البنوي عموما، لذلك يمكن الاقتصار بالقول على أن البنوية قد تخلّقت في كنف الثّورة اللّسانية، الّتي ترّسخت منذ بدايات القرن العشرين، ولاحت معالمها وتحدّدت مجالاتها، حيث استطاعت هذه الثّورة أن تخترق مختلف الأنظمة الفكرية والثّقافية السائدة، وأن تصبح رافدا نظريا ومنهجيا تلجأ إليها تلك الأنظمة.

ولعلّ العلوم اللّسانية كانت سبّاقة إلى احتذاء النّموذج اللّساني والتفكير البنوي عموما لتجاوز إشكاليتها، ولا أدلّ على ذلك من قول أحد روادها وهو **كلود ليفي ستراوس (Claud Levi-Strauss)** حينما رأى أن البنوية قد أمّدت العلوم الإنسانية بنموذج ابستمولوجي، يؤهلها لتجاوز الوصفية الّتي ارتبطت بها، وإلى إكتساب الوحدة والاتساق الكامنين وراء الوقائع الموصوفة،[1] وذلك في قوله:ﷺ **تُقدّم البنوية للعلوم الإنسانية نموذجا ابستمولوجيا، ذا قوّة لا يضاهيها ما كان لها قبل ذلك من مناهج، فهي تكشف في الحقيقة وراء الأشياء وحدة واتّساقا، لا يمكن أن يظهرا في الاقتصار على وصف الوقائع .**[2]

كما أنّ البنوية تقدّم الإمكانات الابستمولوجية لقيام اللّغة من خلال موضعة انتماءات قصود اللّغة إلى العالم، فالبنوية قائمة على التفقير من المعنى

كشرط لبلوغ المستوى المنطقي، وعلى استبعاد الذات كحامل للدلالة كشرط لإمكان الانحصار داخل حدود الوصف التصنيفي، وكسبيل إلى تعيين اللّغة كظاهرة علمية قابلة للتفكك [3] عند **لحظة لسانية، والّتي تسمح لنا باكتشاف نظام عميق تحت التفكك الظاهر.**[4]

وكان من التّصور المنطقي أن يمتد تأثير البنوية إلى مجال النقد الأدبي، وخصوصا حينما تلاحقت المفاهيم اللّسانية كما بلورها **دي سوسير** (Ferdinand de Saussure) وتلاميذه بالشكلانية الروسية، الّتي أدّى فيها **ياكوبسون** (Jakobson) دورا بارزا ومحوريا،[5] فأصبح الفكر النقدي المعاصر متبنيا التصورات البنوية سواء ذلك الذي اتّخذ اللّسانيات مرجعا له، أم ذاك الذي بقي محكوما بالمرجعيتين النفسية والاجتماعية خاصة.[6]

والبنوية في مقاربتها المتميزة نظام تحليلي، يعتمد الدلالات والرموز والإشارات في دراسة النص، وفق قاعدة علمية يستعين بها القارئ في التعامل مع النص، بصرف النظر عن اللّغة الّتي كتب بها أو المذهب الذي ينتمي إليه، والبنوية تتعلّق باستقبال النص لا بنتاجه، وعليه فليس ثمّة أدب بنوي بل هناك قراءة بنوية لنص من النصوص، فهي باختصار نظام استقبال موجه بقاعدة علمية، مفادها أنّنا نُفكر في الكل الذي أمامنا على أنّه أساس مجموع أجزاء أو وحدات صغيرة تُشكّل هذا البناء، وإدراك العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء أو تلك هو عمل البنوية.[7]

وقد أفاض الباحثون في تحديد مفهوم البنوية وفي الكشف عن طبيعتها:

أ. مفهوم البنوية

إنّ السّؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن في هذا المقام هو ما لبنية أو البناء؟ وما البنوية؟

قبل الإجابة عن هذا السّؤال لا بأس أن نتّفق أوّلا عن أي المصطلحين أصح، " **البِنَويَّة** " أم " **البِنْيَويّة** " كما هو شائع عند أغلب النقاد العرب المعاصرين، لذلك كثر الحديث عن البناء اللّفظيّ السّليم الذي يجب أن يكون عليه هذا اللّفظ، ووقع الإصرار في نهاية الأمر، على أن يتداول النقاد العرب المعاصرين الاستعمال الخاطئ وهو بنيوية، وذلك عوضا عن الاستعمال النحوي السّليم الذي هو إما " **بِنْيَة** "، وذلك كما تقول في النسبة إلى " **فِتْية** " " **فتيّ** " على القياس، لأنّك تجريه مجرى مالا يعتلّ، وهو مذهب **أبي عمرو بن العلاء**، كما يمكن أن يقال " **بِنَوي** " وهو في رأي **عبد الملك مرتاض** ونحن نتّفق معه، أخفّ نُطقا وأكثر اقتصادا لغويّا، وهو مذهب **يونس بن حبيب**،[8] ويمكن الاستئناس برأي **سيبويه** في

'' **باب الإضافة** ''[9] للتّحقّق من هذه المسألة، والتّأكّد من الاستعمال اللّغوي السّليم، الذي يقتضي إمّا أن يكون أصل اللّفظ '' **البِنيّة** '' فيقال '' **بنيَيِيّ** '' وهو ثقيل النطق، وإمّا أن يكون على القلب فيقال '' **بِنَوي** '' وهذا الإطلاق، بالإضافة إلى سلامته من الخطأ، وهو الأخفّ نطقا باللّسان والأجمل وقعا في الآذان.[10]

وقد تُجمع أغلب المعاجم على أنّ '' **بنية الشيء** '' في اللّغة العربية هي تكوينه، وهي تعني أيضا الكيفية الّتي شُيّد على نحوها هذا البناء أو ذاك، وحين نتحدّث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشّخصية أو البناء اللّغوي، فإنّنا نُشير بذلك إلى وجود نسق عام أهم ما يتّصف به هو عنصر النّظام، فالبناء هو صورة منظّمة لمجموع من العناصر المتماسكة، ومن هنا فإنّ البنية تقوم على اعتبار مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيّرة، يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج.[11]

ومادام منشأ البنوية قد ارتبط باللّسانيات الحديثة فإنّ مفهومها الأوّلي قد ارتبط بمنشئها الأصلي فدلّت في اللّسانيات:

- على الاتجاهات اللّسانية الحديثة والمتنوعة الّتي تبلورت بين الحربين العالميتين.
- وعلى اتجاه في اللّسانيات يُعنى بتحليل العلاقات بين أجزاء اللغة.[12]

وحين ارتباطها بالأنظمة الفكرية المختلفة وضمنها العلوم الإنسانية، استمرّ مفهوم العلاقات ليعالج قضايا وظواهر ليست من طبيعة لغوية، مثلما فعل **كلود ليفي ستراوس** حين درس – بنويا عليه السلام السّلوك الحضاري والطقوس والشعائر، وعلاقة القرابة وقوانين الزّواج وطرائق الطبخ،[13] ومثلما فعل **جان لاكان (Jacques Lacan)** في دراساته النفسيّة عن بنية اللّاشعور، بل لم تسلم حتّى الفلسفة الماركسية، باعتبارها نظرية متكاملة في التّاريخ والاقتصاد والاجتماع من تأثير البنوية، حينما قام **ألتوسير** (Louis !"#usser) بمراجعتها في ضوئها، ناهيك عن علم الاجتماع الجدلي، الذي وجد في البنوية ملاذا صالحا لتطوير مفاهيمه، وتدقيق تصوّراته حول الأدب وظواهره، واتّضح ذلك التأثير والتطوير فيما قام به **لوسيان غولدمان** (Lu$ien %o!d&an) بتأسيسه للبنوية التكوينية، الّتي تمّ بها تجاوز نظرية الانعكاس التقليدية، وتحدّدت بها أيضا المعالم الأولى لعلم اجتماع الأدب.[14]

ب. طبيعة المقاربة البنوية

إن تحديد مفهوم المقاربة البنوية يضعنا في صُلب إشكاليّة البنوية منهجا

وفكرا، فعندما نتحدّث عن البنوية من الضروري أن نقوم بعملية تحديد أوليّة، تتمثّل أساسا في الفصل بين البنوية بوصفها منهجا، وبين البنوية بوصفها مذهبا فلسفيا، يتوخّى الشُّمولية في تفسيراته ويستخدم تجلّيات العقل في المجالات المتباينة،[15] وهذا ما أدّى إلى اختلاف أراء الباحثين حول طبيعة البنوية بين توجّهين كبيرين:

التّوجّه الأوّل: ينظر إلى البنوية على أنّها نظرية فلسفية لها بناء نظري وجهاز مفاهيمي، تستطيع أن تؤسس بهما تصوّرا عن كافّة الظواهر والقضايا، ونجد في مقدمة هذا التوّجّه المفكّر **روجيه غارودي (Roger Garaudy)**، الذي اعتبر البنوية فلسفة موت الإنسان، وقد فتح هذا المنظور الفلسفي المجال لقراءات إيديولوجية متنوّعة للبنوية، تسعى للكشف عن الخلفيات الفكرية الّتي تستبطنها، فقد ربطت الباحثة الأمريكية **إديث كيروزيل** ازدهار البنوية إلى إيديولوجية جيّدة، أمدّت اليسار الفرنسي بفكر جديد، يبعده عن الماركسية دون أن تتناقض مع التوّجّه الاشتراكي.[16]

فلقد احتلّت الفلسفة البنوية الصّدارة، وذلك لتصديها لكل الفلسفات الذّاتية وتقديمها لبديل نظري جديد، لذا فلا غرابة إن انتشرت البنوية بشكل واسع في الستينيات من القرن العشرين، حيث ارتبطت هذه الفترة ببروز أسماء وعناوين كتب ميّزت هذه المرحلة،[17] وهو التّصدي الذي جعل البنوية خلفا شرعيا للوجودية، بعد أن تقلّص نفوذها عندما طرحت مسألة البنية: ﷺ **كانت الكلمة السّحرية حتّى ذلك الحين: '' الذّاتية '' فصارت مذ ذاك فصاعدا: '' البنية '' .**[18]

كما أنّ إخفاءها للبُعدين الأيديولوجي والسياسي وإظهارها للبُعد العلمي قد جعلها تستأثر باهتمام معظم المفكّرين المحافظين؛ وفي مقدمتهم **كلود ليفي استراوس،**[19] وذلك ما عجّل بانتهاء عصر البنوية، الذي امتدّ في فرنسا في منتصف الخمسينيات إلى السنوات الأولى من عقد السبعينيات، حيث كانت ثورة الطلاب في مايو 1968م حركة احتجاج على الفكر البنوي، الذي بدأ منذ هذه الثّورة يفقد بريقه وهيمنته، ويتخلّى عنه أبرز رواده مثل **ميشيل فوكو/ ولويس ألتوسير/ ورولان بارت،** غير أنّ ذلك لم يمنع من استمرار بعض المفاهيم البنوية في عصر ما بعد البنوية.[20]

التّوجّه الثّاني: ويذهب إلى نفي الطبيعة الفلسفية عن البنوية، وإلى دحض الخلفيات الإيديولوجية والسياسية الّتي أُريد ربطها بها، وإلى الدفاع عن البنوية باعتبارها منهجا في التفكير، وليست نظرية قائمة الذات بدليل أنّ الفلسفات الحديثة باختلاف نظرياتها، والعلوم الإنسانية بتنوع منطلقاتها وتوجّهاتها قد

استفادت منها، باعتبارها منهجا وضمنها الفلسفة الماركسية نفسها.

وهذا ما يؤكّده **سعيد الغانمي** الذي يرى أنّ البنوية تختلف عن المذاهب الفكرية الحديثة، من حيث إنّها لا تحمل مضمونا فكريا ولا تتقيّد باتجاه إيديولوجي محدّد، إنما تتحدّد بكونها مشروعا منهجيا يقوم على مستويات إجرائية متضافرة، وقادرة على الكشف عن البنى المؤسسة للظواهر المدركة، وبالتّالي فإن البنوية ليست نظرية، وإنما هي طريقة في التفكير، تعمل على الرسوخ في مختلف مجالات المعرفة المعاصرة، وعلى إنتاج نظرة جديدة للتعامل مع مختلف الظواهر والقضايا.[21]

وقد ألّح **كمال أبو ديب** على إضفاء صفة الموصوف المنهجي عن البنوية بقوله: **ليست البنوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، ولأنّها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقف منه ،**[22] ومن ثمّ فإن البنوية ممارسة قبل كل شيء أكثر منها صيغة كينونة، إنّها منهج وعلم، وليست مكاسب لا تكون نهائية أبدا، بل معالم محكوم عليها بالتّجاوز دون الكفّ عن معاينة الوجود عن طريق الفكر.[23]

وهذا ما يؤدي إلى نتيجة مبدئية مفادها، أن البنوية منهجا متى أدركنا أن العلم الحديث ومنذ القرن التّاسع عشر لم يتمكن من تحقيق إنجازاته الكبيرة، إلا بفضل تطبيق النّموذج الرياضي على الظواهر الطبيعية، أمكننا أن نحكم بأنّ هذا العلم كان منذ بدايته بنويا، لأنّه قصد الوصول إلى البناء الكامن وراء الظواهر الطبيعية وعبّر عنه بلغة رياضية.[24]

وبما أنّ ميزتها هي انطلاقها من اللّسانيات وسعيها لتعميم ما ترسّخ في مجالها على المجالات الأخرى، وما دام الأدب مادة لغوية فإنّه أكثر قربا من اللّسانيات، وأنّ المنهج البنوي أكثر مقاربة وقدرة في توجيه النقد الأدبي نحو العلمية، وذلك باستقائه لمفاهيمه من اللّسانيات ولمنهجه من البنوية لإنتاج معرفة علمية بموضوعه، ولإضفاء العلمية على تعامله مع ذلك الموضوع تعصمه من الانطباعية والإيديولوجية.[25]

وذلك ما عمل **عبد السّلام المسدي** على الدفاع عنه في قوله: **إنّ اللّسانيات كعلم من العلوم الإنسانية، والبنيوية كمنهج في بحث الظواهر ودراستها قد ولدتا نزعة في دراسة القضايا المتّصلة بالعلوم الاجتماعية عموما، وهي نزعة الانضباط الموضوعي المستند إلى مقومات التيّار العلماني الذي شمل عليه السلام من بين ما شمل ميدان الدراسات الأدبية لتقييم الأثر الفني تقييما علميا .**[26]

كما أنّ الطبيعة المنهجية للبنوية هي الّتي بلورت المقاربتين الأساسيتين

في التحليل البنوي عموما، وفي التحليل البنوي للنصوص الأدبية خصوصا وهما:

أ. تحديد البنية: أي النظر إلى النص باعتباره بنية مستقلة، وهذه البنية قد تكون نصا شعريا أو مجموعة نصوص شعرية، أو قد تكون رواية أو قصّة أو مسرحية أو أسطورة، أو ما إلى ذلك من فنون الشّعر والنثر، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المنهج البنوي يصعب تطبيقه على الشّعر بخلاف فنون السّرد الذي يمكن تقسيم السياق السّردي، الذي تتوافر له عناصر تتوافر للشّعر مثل تتابع الأحداث والحبكة والشّخصيات.[27]

ب. تحليل البنية: أي الكشف عن عناصر البنية وعلاقاتها، وعن الأنساق الفكرية الّتي تنتظمها؛[28] أي بعد تحديد البُنى الدلالية الكبرى، والبُنى الدلالية الصغرى التي تنضوي تحتها، ونكشف عن المساحة الّتي تشغلها كل بنية في النص، فلا يمكن الشروع في تحليل ما دون أن البدء بهذه المحاولة الدلالية الّتي تكتنف محتواه وتعتري مضمونه.[29]

غير أن هذا لا يعني أحادية المنهج وصرامته، حيث تتعدّد الرؤى في المنهج البنوي خلال الممارسة بتعدّد الباحثين والمحللين البنويين، وباختلاف ثقافاتهم ومنطلقاتهم وأهدافهم في مقارباتهم البنوية مما تنتج معه تمايزات في المنهج الواحد.[30]

2. المنهج البنوي والتأسيس لعلم الأدب

لقد فتح علم اللّغة الحديث آفاقا جديدة لتطوّر المقاربة العلمية للأدب، شملت علم الأدب بصيغة المختلفة، لعلّ أبرز هذه الصيغ الأساسية المنهج البنوي، الذي سنتوقّف عنده من خلال الدّعوة لتأسيس علم الأدب،[31]حيث إنّ المنهج البنوي يتأسّس على تناول الظّاهرة المدروسة تناولا يعزلها عن غيرها من الظّواهر، وذلك بفصلها عن سياقها الزّمني الخارجي وعن الحقول العلمية ذات التوجّه المذهبي، فينفذ الباحث البنوي داخل جسم الظّاهرة ليكشف في بحثه على العناصر المكونة لبنية الظّاهرة، وعلى العلاقات الرابطة بينها من أجل استخراج القانون العام الذي ينظّم تلك العناصر ويضبطها داخل البنية.[32]

ويستتبع ذلك أن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب المجسّد في نصوصٍ وإنما هو الأدبية، باعتبارها الحقل الأدبي الذي يستقي منه الأدباء نتاجهم، والذي يضفي على النصوص اللّغوية طابعا أدبيا، يقول **ياكوبسون: ليس موضوع العلم الأدبي هو الأدب وإنما الأدبيّة؛ أي ما يجعل من عمل معين عملا أدبيا.**[33]

فإذا كان **دي سوسير** يفرق بين اللغة كنظام، واللغة كاستعمال كان كلاما أو كتابة، فإنّ علم الأدب يفرق بين الأدب والأعمال الأدبية، فهو حسبما يرى

تودوروف (*odoro' e"an() ') يدرس الأدب، ولا يشغل نفسه بالأدب الواقع بل بالأدب الممكن؛ أي بتلك الصفة المجرّدة الّتي تخصّ الظّاهرة الأدبية وهي أدبيّة الأدب.[34]

3. مقاربة المنهج البنوي عند النقاد العرب المعاصرين

قد لا يتّسع مجال الدراسة للإلمام بجميع ما كتب عن البنوية في الدراسات العربية في هذا الصدد، لذلك سنقتصر على مدى قدرتها على استجلاء مكامن النص الأدبي، الذي ظلّ عند الدارسين شغلهم الشّاغل وهاجسهم المستمر.

إنّ أوّل ما يستوقف الدارس عندما يلقي نظرة إجمالية على موقفهم من هذا الموضوع، وهو أنّ بلوغ معنى النص ظلّ هاجسا يستبدُّ بهم ويسترعي اهتمامهم، لاعتبارهم إياه غاية ما ينشده الدارس في تعامله مع النص، لذلك سنقف في معالجة الموضوع عندهم على ثلاثة مواقف إجمالا.

الموقف الأول يقوم على وصف موضوعي لكيفية مقاربة البنوية المعنى وسنقتصر في هذا المقاربة عند كل من **صلاح فضل/ وكمال أبو ديب/ ومحمد بنيس.**

ويتمثل الثّاني في التنويه بما حقّقته البنوية من نجاعة في تحليل النصوص، لكن أصحاب هذا الموقف ما إن يتّضح هذا التوجّه حتى يشفعوه – ويسلمنا هذا إلى الموقف الثّالث – بوضع البنوية موضع سؤال، وإبداء شكّهم في جدارتها أن تتبوأ المنزلة المثلى في تحليل النصوص لأسباب سنتبينها في الحين، ويعتبر هذا الموقف بشطريه أكثر مواقف العرب من البنوية انتشارا ورواجا.

أ. الموقف الأوّل: مقاربة المعنى في التّحليل البنوي

إن البحث عن الدلالة فيما يُبيّن **صلاح فضل** كان همّا عند الإنسان متّصلا، وغاية لم يكفّ عن النزوع إلى بلوغها وتوفير الوسائل لتحقيق ذلك، لكنّ الانقلاب السيبرنطيقي الذي أحدثته البنوية، تمثّل في أنّها كفّت عن الطموح إلى احتواء المعنى في كلّيته، إنّما أصبح همّها الأقوى ينصب على بلوغ المعنى الممكن، أو حسب ما يسميه **رولان بارت (Rolan Barth)** في سياق آخر، **" الشّكل الفارغ "** الذي يجعل المعنى في حدود الإمكان، فالمعاني متعدّدة ولا نهائية، وكل محاولة لتقصيها أو استيعابها مآلها لا محالة الفشل، فالأجدى على هذا الحال البحث عن الشّكل الصانع للمعنى،[35] على اعتبار أن محتوى المعاني لا يمكن أن يستنفذ أهداف الإنسان الدلالية، الّتي تتّجه إلى عملية الإنتاج المعنوي بتنوّعاتها التّاريخية.[36]

إنّ مقاربة المعنى البنوي تتّضح مقارنة فيما يقوم به الدارس البنوي فيما

يضرب له **صلاح فضل** من مثل في مواطن أخرى– كمثل ما يقوم به الباحث عن نظم ترصيف القطع الخشبية، الّتي أدّت إلى صنع كرسي أو طاولة، والدخول في اللعبة البنائية هو دخول في اللعبة الدلالية، واستقطار لإمكانات تحقّقها في تعدّدها اللّانهائي، فالمهمّ ليس بلوغ المعنى النهائي للنّص لكن استشراف حدوده القصوى في الإيحاء، واستنطاق طاقته على إنتاج المعنى،[37] **إذا كان كل عصر يظنّ أنّه قد أمسك بالمعنى القانوني الدقيق لهذا الأثر أو ذاك، فإنّه يكفي أن نوسّع من منظورنا التّاريخي كي ندرك سذاجة هذا الظن، ونعدل عن المعنى المنفرد إلى المعنى المتعدّد، وعن الأثر المغلق إلى الأثر المنفتح.**[38]

هكذا إذن تقاس جودة العمل الأدبي بقدرته على الانفتاح على المعنى المتعدّد، ومقاربته لاحتواء أكبر قدر من الدلالة، ويظلّ مع ذلك ساكتا عن أسراره متكتما على مكنوناته، لا يتاح لكل عنصر إلا الكشف عن مقدار يكثر أو يقل بحسب ما تهيّئه له المعارف من أدوات تشريح لطاقته على التّجدّد والتّفجّر اللّانهائيين وإنجاز الناقد البنوي لهذه العملية يكشف في الوقت نفسه عن نظامه، وعن أفق المعرفة ونظامها في عصره.[39]

أما **كمال أبو ديب** فإنّ كتابه '' **جدلية الخفاء والتّجلّي** '' الذي ألّفه عام 1977م، يُمثّل آية البنوية، ابتداء من العنوان القائم على الثنائية الضدّيّة '' الخفاء والتّجلّي''، في محاورة جدلية تدفع اللبس عمّا يخفيه العمل الأدبي، إذ (تحت الرماد اللهيب) ومن هنا تكون مهمّة الناقد أن يُعرب أوّلا من خلال عمله في مرحلة الفهم عن كشف النواحي الجمالية، وفي مرحلة ثانية تفسير هذه النواحي، ومن خلال المراوحة بين المرحلتين الجمالية والاجتماعية تنكّشف الرؤى الخفيّة وتتجلّى للفهم والتأويل.[40]

إنّ هذه المقاربة الثنائية لاستجلاء المعنى، الّتي اعتمدها **كمال أبو ديب** للدفاع عن منهجه البنوي في النقد الأدبي، يهدف من خلالها إلى اكتناه جدلية الخفاء والتّجلّي وأسرار البنية العميقة وتحولاتها، ويطمح إلى تحيد المكونات الأساسية للظّواهر، واقتناص شبكة العلاقات الّتي تشعُّ منها وإليها، والدلالات الّتي تنبع من هذه العلاقات في البحث عن التحولات الجوهرية للبنية، الّتي تنشأ عبرها تجسيدات جديدة، لا يمكن أن تفهم إلا بواسطة ربطها بالبنية الأساسية، وإعادتها من خلال وعي جاد لنمطي: البُنى السّطحية والعميقة.[41]

غير أن **صلاح فضل** ينتقد مقاربة **كمال أبو ديب** في توجّهه نحو محور الثنائية في قوله: **يبدأ الباحث دراسته البنيوية عن '' الفضاء الشعري'' (...) باقتطاع جذاذات من الشّعر يتبدّى فيها لون من الثنائية بين جانبين محدّدين،**

وبالرغم من أنّ محور الثنائية أساسي في المنهج البنيوي، إلا أنّه ليس وصفة جاهزة تصلح لاكتشاف الخواص المميّزة لكل نص شعري، بل يبوح كل نص بمحوره، ومركز الثقل فيه بعد أن يتم اختياره بطريقة لا توحي بالقصد إلا إثبات فكرة مسبقة، والاقتصار على المستوى الثنائي المباشر مصادرة، قد تمنع الباحث من الاستجابة المرة الواعية للنص واكتشاف نظامه الخاص .[42]

غير أن أخطر ما في هذا الفصل فيما يضيف **صلاح فضل** لا يقف عند ذلك، بل يتمثّل في الانتقال من جزئية صغيرة متّصلة بنسق موسيقي صوتي في الشّعر، إلى الحديث العام عن بنية الثّقافة بطريقة لا تراعي الاختلاف الجوهري بين الظواهر المتنوعة، إذ من المفترض أنّ ما يصدق على تصوّر جزئي بسيط قابل بالضرورة لهذا التعميم، وهذا ما يكاد يحيد عنه **كمال أبو ديب**، فيخرج عن روح المنهج العلمي الذي تسعى البنائية لمقاربته.[43]

إنّ المغالطة المنهجية والنقدية الّتي وقع فيها **كمال أبو ديب** تعود بالأساس إلى محور الثنائية، حيث اتّسم هذا المحور بالتعميم وعدم الدقّة، وهو في تصور **صلاح فضل** مقحم من قِبَل **كمال أبو ديب** على نسيج نصي، يحوي تفريعات ثنائية أخرى أكثر جمالية من الجمالية الّتي توصل إليها **أبو ديب**، هذا ناهيك عن تكراره لمقولات تفتقر إلى الدقّة العلمية ومعايير الضبط المنهجي.[44]

يتّضح من خلال ذلك أنّ المقاربة البنوية الّتي سعى إليها **كمال أبو ديب** تتّصف بالغموض والضبابية، وتطبيقه للبنوية على النصوص العربية قد عمل على تحويل هذه النصوص إلى رموز وإشارات مبهمة، في حين يعتقد **بشير تاوريريت: أن المقاربة البنوية الحقّة، هي المقاربة الّتي تستهدف مادة النص استهدافا فيه من الوضوح ما يجعل تذوق النص ممكنا ،**[45] وبرغم هذه الانتقادات تبقى محاولة **كمال أبوديب** رائدة وجادة بالقياس الى ما تقدّمها من محاولات أخرى.

وإذا ما تأمّل الدّارس في خريطة النقد البنوي التكويني وأراد انتخاب المحاولات الرائدة، والّتي حاول أصحابها الاقتراب من تلك المبادئ الّتي طرحها **لوسيان غولدمان** تنظيرا وممارسة، يجد محاولة **محمد بنيس** من خلال كتابه **'' ظاهرة الشّعر المعاصر بالمغرب مقاربة بنيويّة تكوينيّة ''**، الذي جسّد فيه بعض مبادئ المنهج البنوي التكويني، كما قدّمه **'' لوسيان غولدمان''**،[46] من خلال ربط المحتوى بالمدلول؛ أي بإحدى رؤى العالم لدى شعراء المغرب المعاصرين، حيث عمل على تحديد البنية العامّة، والبنيات الدالّة الّتي تنتظم عناصر هذا المحتوى، ثم قام بنقل هذه البنيات إلى مستوى أعلى، وأدخلها في بنية أكثر اتساعا، وهي البنية الثّقافية ثمّ البنية السوسيو تاريخية، محاولا الانطلاق من الفهم ليصل إلى التّفسير،

لإلقاء الضوء على تلك البنية الثّقافية المستخلصة سابقا، من خلال مقارنتها مع إحدى بنيات رؤى العالم الموجودة لدى فئة الشّعراء المغاربة،[47] منتهجا في ذلك مبادئ الملاحظة والاستقراء والموضوعية.[48]

لقد استطاع **محمد بنيس** في إفادته من البنوية التكوينية، الوصول إلى الرؤية التي تضمنتها تلك النصوص التي عمل على مقاربتها، ومن خلال معارضته للمناهج التقليدية حاول أن يمارس بديلا علميا معقّدا، أي تحليلا ممنهجا لعناصر النص ومستوياته، منطلقا من النص كمادة لغوية، بيد أن هذه الممارسة وبالرغم ممّا حقّقته من أهداف إلا أنّها أهملت إمكانية إبراز الخصائص الجمالية للنص، الّتي هي خصائص دلالية في الوقت ذاته؛ أي خصائص على علاقة وثيقة بالرؤية الماثلة وربما كانت المكونة لها.[49]

وخلال حديثه عن بلاغة الغموض نجده قد وقع في التّناقض، فهو من ناحية يدعو إلى الاقتراب من القارئ، ومن ناحية ثانية يستقدم الغرابة والغموض، وقد أرجع ذلك إلى **أن بلاغة الغموض ناتجة عن انفجار لغة النص، وخروجها على القوانين المقيّدة للغة اليومية العادية .**[50]

وبعد انتهائه من القراءة للبنية السّطحية، والّتي شملت الزمان والمكان وبنية المتتاليات والبنية البلاغية، بلغ ما سمّاه القراءة للبنية العميقة الّتي اعتبرها إدماج البنيات الدالّة السّطحية في بنية أكثر اتساعا، وخلُص أن البنية العميقة تتشكّل من ثلاثة قوانين: التجريب؛ المرتبط ببنية الزمان والمكان وقانون السّقوط والانتظار؛ المرتبط ببنية المتتاليات وأخيرا قانون الغرابة؛ ذو العلاقة ببلاغة الغموض.[51]

وتوجّه **يمنى العيد** نقدها لمقاربة محمد بنيس، حيث تأخذ عليه تقصير ملمح التّناسق والتفاعل على قوانين ثلاثة هي: التجريب، والسّقوط والانتظار، والغرابة، ويتّضح ذلك في إهماله للمستوى الدلالي بذاته، مركّزا على التّناسق القائم بين دلالات القوانين الثلاثة، وتردُّ **يمنى العيد** هذا التّقصير في مقاربة **بنيس** إلى التزامه بـ: **" المفهوم الغولدماني"** لمعنى الجمال في النص، وهو مفهوم لم يتعرض للمستوى اللّغوي كتركيب ومفردات وأصوات، وإيقاعات وتكرار ومعادلات بين هذه المفردات، والأصوات في بنياتها الجزئية؛ أي لما هو خاص بنظام اللّغة في النص الشّعري، الذي يُشكّل هنا مادة الدراسة في بحث **بنيس**.[52]

أما **عبد الرحمن بوعلي** فيرى أن **محمد بنيس** قد حافظ نسبيا على منهجية البنوية التكوينية، وذلك باستعماله لخطّة تتضمّن مستويين في الدراسة وهما: مستوى في فهم المتن الشّعري ومستوى تفسير هذا المتن، مع محاولة الاستفادة من بعض المناهج الأخرى ومصطلحاتها، غير أن المأزق المنهجي الذي

وقع فيه **بنيس** هو إشكاليّة الجمع بين مناهج متعدّدة، بالإضافة إلى المصطلحات الّتي استعارها من خارج المنهج البنوي التكويني، كمصطلحي '' **البنية السّطحية/ والبنية العميقة** '' عند **تشومسكي**، و'' **النص الغائب** '' عند **جوليا كريستيفا**، و"**المتتالية** '' عند ـ**تودوروف** والّتي بدت وكأنّها مقحمة، والّتي حاول أن يعطيها تعريفات خاصة به، بالإضافة إلى الاكتفاء باختيار المتن الشّعري في فترة زمنية محدّدة،[53] وهو الأمر الذي يُعدُّ تهميشا لعدد من المفاهيم والإجراءات واختزالا للمنهج وعدم استيفاء كافة عناصره،[54] وهذا ما أدّى إلى اضطراب في المنهج ومن ثمّ إلى ضعف في الكفاية النظرية والإجرائية، وبالتّالي نتائج متعسفة لا تنطبق على الشّعر المغربي المعاصر.[55]

ب. الموقف الثاني: التنويه بما حققته البنوية من تطوير في استجلاء المعنى

لا نكاد نطلّع على موقف من البنوية دون أن يطالعنا تنويه صاحبه بما حققته البنوية من تطوير نوعي في طريقة التعامل مع المادة المدروسة، ولما كانت هذه المواقف كثيرة يصعب حصرها والإلمام بها جميعا، اقتصرنا على ما نعتبره أكثر تجسيدا للظّاهرة، وتمثيلا لموقف الدارسين العرب منها، وسنكتفي في هذا الصدد بعرض موقف كل من حمادي صمود ومصطفى ناصف.

يفرد **حمادي صمود** لمعالجة الموضوع فصلا عنوانه:''**المناهج اللّغوية في دراسة الظّاهرة الأدبية** ''، مؤكّدا من خلال هذه الدراسة أنّ توظيف الظّاهرة اللغوية في دراسة الأدب ليست جديدة، آية ذلك ما احتفل لدى النقاد العرب القدماء في جهازهم المفهومي النقدي، الذي مثّلته البلاغة العربية بالبعد اللّغوي في الدراسة، ومع ذلك يظلّ هناك تباين بين الطريقتين القديمة والحديثة، في استعمال اللّغة متّسعا قد يبلغ حدّ القطيعة، ذلك أنّ ما طرأ منذ ما يقرب عن قرن من تحوّل جوهري في المعرفة الإنسانية، انقلب بمقتضاه فهم الإنسان لعلاقته باللّغة وتغيّر تبعا لذلك مفهوم النص الأدبي تغيّرا جذريّا.[56]

وهذا ما جعل النقد الحديث يعيد النظر في المسلّمات الّتي كان النقاد يأخذون بها أنفسهم في معالجة النص، ومن أهمّها الاحتكام إلى الذّوق وإلى قيّم الجمال والخير والحق المرتبطة بالآداب الجميلة، ودفع بالنقد إلى مسالك جديدة أهم خصائصها علمنة المنهج بالنظر في النص الأدبي – مهما تباينت وجهات النظر والرؤى وتعدّدت التيارات والمنطلقات المذهبية – باعتباره كائنا مصنوعا من كلام.[57]

وبصفته هذه وجب التّوسل بما يتوّسل به اللّساني في معالجة اللّغة من

إجراءات، فحقّق النقد نتائج ما كان له أن يحقّقها في ظلّ مناهج النقد التقليدية، لعلّ من أهمّها إبراز أهميّة بنية النّص ونظامه اللّغوي، والكيفيات الّتي تتماسك بواسطتها الوحدات داخل هذا النظام، كما أسهم في إثراء الجهاز المفهومي وإكسابه إمكانات لا يتردّد الباحث **حمادي صمود** في نعتها بالثّورية في المقاربة النقدية، فأخصب بذلك السّجل النقدي بمفهومات " **الاختيار والعدول/ والمعنى المصاحب/ والسياق الأدبي/ والقراءة** "، وبذلك تعدّدت وظائف النص وتداخلت وأصبحت الوظيفة الأدبية أو الأسلوبية – بعد أن تمّ إلحاقها لغويا بالنص كغاية – جانبا من مضلع.[58]

ويعبّر الدارس عن إيمانه العميق بضرورة استثمار هذه المقاربات المنهجية وما أفرزته من مقولات، أصبحت معالم أساسية في المعرفة الإنسانية اليوم، غايتها أن يصبح النقد الأدبي اختصاصا لا يقل دقّة وصرامة عمّا سواه.[59]

غير أنّ **حمادي صمود** يثير سؤالا مفاده ما إذا كان بوسع الدراسة اللّغوية ولنعتبر البنوية إخضاع النص لأحكام موضوعية؛ أي الكشف عن القيمة الأدبية بتحليلها تحليلا علميا، والحال أنّ عملية الخلق تجري في مناطق من الذّات الإنسانية مجهولة، ولعلّ هذا التّساؤل يسلّمنا كتمهيد مباشر للموقف الثالث من البنوية لدى الدارسين العرب.[60]

ج. الموقف الثالث: حدود المقاربة البنوية

يشي تساؤل **حمادي صمود** السابق، والوارد بعد تنويهه بما حقّقه من خلال توظيف المقاربة اللّسانية في دراسة الأدب من مكاسب، بأنّه يشكّ في إمكانية الإجابة بالإثبات والحسم، وهوما يعبّر عنه بالفعل في أكثر من مناسبة في دراساته، ويتلّخص الإشكال في عجز البنوية عن تحقيق ما نُدبت إليه نفسها، من الكشف عن آليات النص وإجرائيات إنتاج المعنى، وفي استقصاء موضوع الأدبية عن الدّرس الشّكليّ، لما للأدبية من صلة بالتّصورات الثاوية في أعماق الإنسان الخفيّة، وربما النّافذة إلى مجاهل الفكر الميتولوجي، إلى حدّ أن أكثر النّاس إغراقا في الشّكلانية، وامتعاضا من اعتبار الأبعاد الميتافيزيقية في تقييم الظّاهرة الأدبية، عجزوا عن قطع صلة الأسلوب بما وراء اللّغة أو إضعافها، ولم يستقم لهم أن يرتدّ النص إلى نفسه حلقة مغلقة، لا تستعين بسياقات خارجية.[61]

والنتيجة المُحصّلة قصور هذه الدراسات الّتي تستّمد أصولها من المبحث اللّساني بمختلف توجّهاته عن الإحاطة بالظّاهرة الأدبية، وتفسيرها تفسيرا مُقنعا بقدر قصورها في كشف حقيقة الصّورة والأسلوب، وتحديد خصائص الكلم الأدبي وإدراك خباياه.[62]

أما **عبد السّلام المسدي** فبعد أن ينوّه بما حقّقته البنوية من نتائج ومكاسب في تحليل النصوص بتجرّدها إلى دراستها **وإزاحتها ما كان يحيط بالأدب من هالة قداسية، كثيرا ما كانت تقوم عائقا حيال الرؤية الموضوعية المتأنّية،**[63] وتحويل مهمّة الناقد من شاهد ووسيط بين المؤلف والقارئ، إلى محلل موضوعي وباحث مستكشف بُنى النص الداخلية، يخلص إلى إبراز حدودها، ويتلّخص ما يوجّهه إليها من انتقاد في نقاط ثلاث وهي:

أوّلا: أنّ عملية النقد البنوي بما آلت إليه من بحث عن نظم العلاقات بين الدوال والرموز، أضحت تجري في حلقة ضيّقة لا تكاد تتعدّى حدود الباحثين المختصين.

ثانيا: أنّ عملية الإحصاء وما يجري مجراها من ضبط لرسوم بيانية وإقامة تشكيلات هندسية،[64] غدت مجرّد بحث تجريديّ شكليّ مقصود لذاته، دون أن يحقّق النتائج المرجوّة في الكشف عن أدبيّة النص، وإن لم ينكر فضلها في إيجاد لغة ثانية تفيد النقد، وتسهم في تطويعه على المهارات التواصلية المختلفة، مما ينسرب معه في الذهن مزيج علاميّ يُحدث وقعا لا يحدثه النسق اللّغوي المتفرّد.[65]

ثالثا: وهو مأخذ متفرّع من السابق ومترتّب عليه، مفاده عدم توصّل البنوية إلى الهيمنة الدلالة ومحاصرة الأبعاد، الّتي تجعل من النص يتجاوز كونه مجرّد نسيج مصنوع من كلام إلى بناء لغوي محقق للوظيفة التأثيرية، وهو ما يرتدّ إلى القول بفشلها في تحويل البيان الموضوعي إلى حكم بالقيمة.[66]

ولا نكاد نخالج الحقيقة في أنّ أكثر الدارسين المهتّمين بموضوع البنوية والمناهضين لها، وإفاضة في التعبير عن هذا الموقف نجد **مصطفى ناصف** في كتابيه **'' الوجه الغائب'' و'' اللغة والتفسير والتواصل ''** وبالرغم من تشعب واتّساع المادة المعبّرة عن هذا الموقف، وامتداد حدودها وأبعادها، فهو يكاد ينتظم لمقاربة فكرة واحدة، مفادها أن البنوية حصرت النص في قوالب جامدة، وحكمت على الإنسان وسبيله إلى التعبير عن وجوده وتفكيره وتاريخه بالموت والفناء.[67]

أما **سعيد الغانمي** فيلتزم في موقفه من البنوية الحياد، مكتفيا باستعراض مجموعة من المآخذ الّتي وجّهها إليها مفكرون غربيون، ينتخب منهم بعضهم كالموقف الوجودي الذي يتبنّاه **جون بول سارتر،** ومدار انتقاده لها أنّها تلغي الجانب الجدلي ودور التّاريخ في صنع البنى، لتجرّد الإنسان من كل فاعلية وسلطة، بالإضافة إلى الموقف التفكيكي الذي تزعّمه **جاك دريدا** (Ja+ue , rida) ، وجماعه أنّ البنوية لم تنج من ميتافيزيقا الحضور، لأنّها إذ تبدأ من البنية تفترض سلفا نوعا

من التّزامن اللّاهوتي، الذي يستنجد بسرمدية الكتاب كما يراه الله، ولهذا يُعنى **دريدا** بتمزيق البنية وتفكيكها، فليست ثمّة بنية أو مركز، لأنّ المركز عنده خارج النص؛ أي النص وداخله، إنّه اللّعبة المتواصلة وبين المركز واللامركز.[68]

وإذا كان موقف الدارسين العرب من البنوية ينحو إجمالا وجهة الرفض لبعض مرتكزاتها المنهجية، وما تكتنفه من خلفيات إيديولوجية دون أن ينفي ذلك اعترافهم بمزاياها في تجديد النظرة إلى الأدب، وكان هذا الرفض مؤسسا في جملته على الإيمان المسبق بمبادئ إيديولوجية محدّدة، يغيب منها – إلا نادرا – التّحليل المركّز والمقارعة الحجاجية، فإنّ لنا في رد **فدوى مالطي دوجلاس** الوارد في كتابها **" بناء النص التراثي"** والموجّه إلى مناوئي البنوية والمناهضين لها، ما يعتبر شاهدا آخر على أنّ المطارحة الحجاجية بيّنة الحضور في بعض الكتابات العربية،[69] وقد انتظم ردّها في محاور يمكن إجمالها كنتائج لموضوع البحث فيما يلي:

فهي تقرر ردا على من يتّهم البنوية بميلها إلى التّحليل المخبري والبحث المدقق في أنسجة النص وخلاياه، ممّا يؤول في تقديرهم إلى إفقاد النص جماليته والتفريط في معاينة أسباب المتعة فيه، أنّ وظيفة الناقد لا تكمن في إبراز جمالية النص الخاضعة لأحكام الذوق والإدراك الحسي، إنّما في تفسيره وإبراز نظم تشكيله الفنّي، وبذلك يعمل الناقد على خلق المعرفة وليس الجمال، لأنّ الاستجابة الانطباعية تمثل رأيا فنيّا ولا تُمثّل نقدا.

أما الاعتراض القائل بأنّ البنوية تجري نموذجا تحليليا واحدا على سائر النصوص جيدها ورديئها، ممّا يفضي إلى تغييب خصوصيات النصوص ومميزاتها النوعية وإلى إلغاء أحكام القيمة، وبذلك تستوي النصوص جميعا على اختلافها ودرجة تباينها في مرتبة واحدة، فنقضه يأتي من جهة أنّ ما تجريه البنوية من كشف للمتشابه من الأشكال واطّراد لنماذج الكتابة، إنّما يُفيدنا في معرفة الخصائص المشتركة والتّثبت من صلاحية المعايير المعتمدة وفحواها، فالأدب يتحدّد بما تختلف فيه بعض تحقّقاته العينية عن بعض، بقدر ما يتحدّد بما تتفق فيه ويقوم بينها بمثابة القاسم المشترك.[70]

ضرب آخر من الرد الموّجّه إلى خصوم البنوية، مفاده أنّ المقاربة البنوية للنصوص لا تفقد شيئا من استقلاليتها، وذلك باستعارتها أدوات منهجية استعملت في حقول أخرى تتقاطع معها في مادة الشكل، وتوفر قدرا كبيرا من الأهمية والنّجاعة ما دام الناقد البنوي المعني بالأدب على وعي بخصوصية موضوع دراسته، فالإفادة المنهجية الواعية تكسب الدّرس جدّة وفعالية، لذلك

يمكن القول أن، المقاربات الأكثر نشاطا وديناميةٍ في أي عصر، هي الّتي كانت الأكثر استعدادا للاستعارة من مجالات أخرى.[71]

غير أنّه في الأخير، يجب التنبيه من أنّ استعارة مناهج الغير ليست إشكالية في حدّ ذاتها، بما أنّ واقعنا الثّقافي الراهن يفرض ذلك، إذ لا بدّ من أن نقوم بعملية مسح شامل للمناهج المعاصرة بما فيها المنهج البنوي، من أجل أن نكتشف سؤالنا ومنهجنا الخاص، فالمشكل الجوهري يكمن في استقدام تصوّرات ونظريات ومناهج أُسست في بيئة ثقافية مغايرة، وتطبيقها على نصوص عربية دون مراعاة خصوصياتها، والعمل على تكييف هذه المناهج وتطويعها لتلائم البيئة الثّقافية الجديدة، ودون مراعاة السياق المنهجي والثّقافي للمناهج الموظّفة، إمّا جهلا بها أو عجزا عن فهم هذا السياق واستصعاب النظر إليه، وهذا ما شهدناه في بحثنا عن تلك المقاربات البنوية الّتي تهافت أصحابها على المنهج البنوي، والشّروع في تطبيقه بشكل آلي دون استيعاب ومرونة، ودون وعي بالإشكالات المترتّبة عن مثل هذا التّهافت، الذي غالبا ما أدّى إلى تشويهها واختزالها.

الجديد في المقال

قبل الحديث عن الإضافات الجديدة لموضوع البحث، لا بدّ من تحديد جُملة من المنطلقات قبل التّفكير في حلول بديلة:

أولا: يجب أن ننطلق من النصوص الّتي نروم نقدها، قبل التّطرق إلى المعطيات السّياقية كحياة الكاتب والظروف الاجتماعية، أو الانطلاق من منهج يخضع الى إيديولوجية بعينها فتكون النتائج معروفة سلفا قبل الخوض في نقد النصوص

ثانيـــا: يتمثّل في معرفة طبيعة النصوص الّتي ننتقدها، فقد لا يمكن تطبيق المنهج البنوي على جميع النصوص مهما كان جنسها وعصرها، مثلا لا نتصوّر تطبيق منهج **فلاديمير بروب** الخاص بالحكاية الخرافيّة على الرواية أو على الشّعر، والّتي أثبتت النّتائج أنّها مجحفة ومتعسّفة.

ثـــالـثـــا: تجاوز الانبهار والارتسامية والأخذ السّلبي، والمحاكاة والتجريح إلى المساهمة والإثراء.

رابعـــــا: الاتفاق على تعريف دقيق للأدب، لأنّ تعقّد العملية الإبداعية يمنع التّبسيط والتنميط والنظر إلى النصوص من زاوية واحدة.

خامسا: تجاوز التّوفيق والتلفيق إلى التكامل والشموليّة مع اعتبار خصوصيّة النصوص.[72]

إن اختيار مقاربة في النقد يقتضي معرفة ماهية الأدب، وكذا معرفة

العناصر المكوّنة له، والمتمثّلة في أنّ الأدب فن وفكر ووجدان، وإن رُمنا التّفصيل قلنا إنّ الفن كلمات وصور وأشكال، وأي مقاربة نقدية لا تنظر في هذه المكوّنات الثلاثة، أو تقتصر على أحدهما دون الآخر تعتبر مجانبة ومضللة.[73]

فإذا كان الأدب متعدّد بهذه الصوّر والعناصر المشكّلة لها، فكيف يُعقل الاقتصار على مقاربة واحدة؟ وإهمال بقية المقاربات؟ بدعوى أنّ النص مغلق على نفسه، أو بسبب اختيار منهج مبتور لا تهمّه المعاني، ولا العلاقة الجدلية بين الشّكل والمضمون.

معنى ذلك أنّ ماهية الأدب وطبيعة النصوص هي الّتي تستدعي المقاربة المناسبة لها، وليس من الثّابت أنّ كلّ نص يحوي جميع العناصر المذكورة، وفي هذه الحالة يكون من الإجحاف الاستعانة بجميع المقاربات لنقده، فلا بدّ من انتقاء ما يمكن من تحليل العناصر المتوفّرة فيه دون خشية الجمع بين منهجين فأكثر: أحدها يهتمّ بما قبل النص، والثّاني بالنص نفسه، والثّالث بما بعده، فليس في الأمر تناقض بما أنّ النص متكامل العناصر، فلابدّ من الحرية المنهجية الّتي تمكّن من التصرف والتعديل، وتتخطّى الدغمائية والتحجّر لأنّ تعدّد المعاني يقتضي تعدّد القراءات.[74]

ومنهم من يشعر بالحاجة إلى التكامل ويعبّر عن ذلك لكنّه لا يجرؤ على مخالفة ما اختاره من منهج وحيد، يقول **عبد السّلام المسدي** مثلا في كتابه **'' الأسلوبيّة والأسلوب '': لا شرعية لأي نظريّة جماليّة في الأدب مالم تتّخذ من مضمون الرسالة الأدبية أسّا لها، بل أهمّ قواعدها التأسيسيّة، كما أنّه لا يمكن الإقرار بأي قيمة جماليّة للأثر الأدبيّ، مالم نُشرّح مادّته اللّغويّة على أساس اتّحاد منطوق مدلولاته بملفوظ دوالها.**[75]

كما أنّ تراجع تودوروف في العديد من مواقفه عائد في الأساس إلى تبنّيه لما يسمّيه بالنقد الحواري، الذي لا يهمل الكاتب ولا الناقد، يقول **تودوروف: بيد أنّ النقد حوار، ومن صالحه الإقرار بذلك علنا، إنّه لقاء صوتين: صوت الكاتب وصوت الناقد، وليس لأي منهما امتياز على الآخر.**[76]

وفي الختام نرى أنّ الناقد بهذا التّمشّي يستفيد من جميع المناهج الأحادية الرؤية، فيوظفها لتفجير مختلف الطاقات الكامنة في الأثر الأدبي إن كانت، وإن لم توجد فيه فلا ينبغي التّعسّف عليه لإيجادها، انطلاقا من منهج مخصوص أو من إيديولوجية مخصوصة، فالنص الثّري ناطق بل متعدّد الألسنة والأصوات، فلا بدّ من البحث في بنائه ولغته وصوره وخيال صاحبه دون إهمال رسالته وسائر أبعاده.

الهوامش والإحالات

[1]. عبد العزيز جسوس، إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات، مراكش، المغرب، ط1، 2007م، ص83.

[2].الطاهر وعزيز، بنيوية كلود ستراوس، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990م، ص33.

[3].عمارة الناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، الدار العربية للعلوم – ناشرون ط1، بيروت، لبنان، 2007م، ص 60.

[4] .Arkoun Mohamed, '' lectures du coran '', Edit : Maisonneuve et larouse , paris, 1982, p.5.

[5].فؤاد أبو منصور، النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوروبا، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1،1985م، ص 54.

[6] عبد العزيز جسوس، المرجع السابق، ص84.

[7]. محمد عباس عبد الواحد قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية والحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، مصر ط1، 1997م، ص 68و69.

[8]. عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهمّ المدارس النّقديّة المعاصرة ورصد لنظريّاتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، (د/ط)، 2005م، ص 190و191.

[9] . سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام مارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر (د/ط)، 1988م، ج3، ص 347.

[10]. عبد الملك مرتاض، المرجع السابق ، ص 191.

[11].عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، دار المعارف، مصر، (د/ط)، 1989م، ص2.

[12].حسن ناظم، مفاهيم الشعرية في الأصول والمنهج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2003م، ص70.

[13]. المرجع نفسه، ص70.

[14]. عبد العزيز جسوس، المرجع السابق، ص84و85.

[15]. عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، (د/ط)، 2010م، ص 17.

[16].إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993م، ص 20.

[17]. الزواوي بغورة، المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001م، ص52.

[18]. روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، (د/ت)، ص 14.

[19]. المرجع نفسه، ص 22.

[20]. المرجع نفسه، ص20.

[21]. عبد العزيز جسوس، المرجع السابق، ص86.

[22]. كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1984م، ص7.

[23]. مومن السميحي، المغامرة البنيوية، مجلة بيت الحكمة، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب،ع4، 1987م، ص 141.

[24]. عمر مهيبل، المرجع السابق، ص17.

[25]. صلاح رزق، أدبية النص، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1989م، ص211.

[26]. عبد السّلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص32.

[27]. محمد الواسطي، أسرار النص مقاربة بنيوية منفتحة، مطبعة آنفو برانت فاس، المغرب، ط1، 2003م، ص44.

[28].يمنى العيد، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص 35و36.

[29]. محمد الواسطي، المرجع السابق، ص 47.

[30]. يمنى العيد، المرجع السابق، ص 37.

[31]. عبد العزيز جسوس، المرجع السابق، ص79.

[32]. محمد أقضاض، مقاربة الخطاب النقدي المغربي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م، ص179.

[33]. تزفيتان طودوروف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م، ص84.

[34].شاكر عزيز ماضي، من إشكاليات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص 107.

[35]. محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث، دار محمد علي الحامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، سوسة تونس، ط1، 1998م، ص 366.

[36].صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998م.، ص207.

[37].محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص 366.

[38]. صلاح فضل المرجع نفسه، ص299.

[39]. محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص 366.

[40]. أحمد سالم ولد أباه، البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية، مصر، (د/ط)، 2005م ص183.

[41]. فؤاد أبو منصور، المرجع السابق، ص469.
[42]. صلاح فضل، المرجع السابق، ص8.
[43]. المرجع نفسه، ص8و9.
[44]. بشير تاوريريت، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، دراسة في الأصول والملامح والإشكالات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2006م، ص 62.
[45]. المرجع نفسه، ص62.
[46]. المرجع نفسه، ص69
[47]. حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، مطبعة أنفو برانت 12 شارع القادسية، الليدو، فاس، المغرب، 2005م.ص 72و73.
[48]. بشير تاوريريت، المرجع السابق، ص69.
[49]. يمنى العيد، في معرفة النص، ص 126.
[50]. محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، بيروت، لبنان، .ط1، 1979م، ص162.
51. عبد الكريم فاضل، قراءة في كتاب: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، مقاربة بنيوية تكوينية – لمحمد بنيس، مجلة ضفاف، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة ، المغرب. العدد6 فبراير 2004م، ص113.
[52]. يمنى العيد، المرجع السابق، ص127و128.
[53]. عبد الرحمن بوعلي، في نقد المناهج المعاصرة البنيوية التكوينية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، المغرب، ط1، 1994م، ص32و33.
[54]. محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1،1999م ص323.
[55]. عبد الرحمن بوعلي، المرجع السابق، ص 34.
[56]. محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص369و370.
[57]. المرجع نفسه، ص370.
[58]. المرجع نفسه، ص370.
[59]. المرجع نفسه، ص370.
[60].المرجع نفسه، ص371.
[61]. المرجع نفسه، ص 371.
[62]. المرجع نفسه، ص 371.
[63]. عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص 73.
[64]. المرجع نفسه، ص 79.

[65]. المرجع نفسه، ص70.

[66]. المرجع نفسه، ص77.

[67]. محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص368.

[68]. المرجع نفسه، ص373و374.

[69]. المرجع نفسه، ص374.

[70]. المرجع نفسه، ص374.

[71]. المرجع نفسه، ص375.

[72] محمود طرشونة، إشكالية المنهج في النقد الأدبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، (د/ط)، 2008م. ص18.

73. تزفيتان تودوروف، نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، بيروت، لبنان، 1986م ، ص 75.

[74] محمود طرشونة، المرجع نفسه، ص 18و19.

[75]عبد السّلام المسدي، الأسلوبيّة والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (د/ط)، 1977م، ص 118.

[76] تزفيتان تودوروف، المرجع السابق، ص 147.

قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد سالم ولد أباه، البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، (د/ط)، 2005م.

2. إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993م.

3. آن جفرسون ديفيدروبي، ترجمة: سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1992م.

4.بشير تاوريريت، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، دراسة في الأصول والملامح والإشكالات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2006م.

5. تزفيتان تودوروف، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م،

6. تزفيتان تودوروف، نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، بيروت، لبنان، 1986م.

7. حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 2003م.

8.حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، مطبعة أنفو برانت 12 شارع القادسية، الليدو، فاس، المغرب، 2005م.

9. روجيه غارودي ، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3،

دت.

10. الزواوي بغورة، المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001م.

11. شاكر عزيز ماضي، من إشكاليات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

12.صلاح رزق، أدبية النص، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1989م.

13. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998م

14. عبد السّلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

15. عبد السّلام المسدي، قضية البنية، دار أميّة، تونس، (د/ط)، 1991م.

16.عبد السّلام المسدي، الأسلوبيّة والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، (د/ط)، 1977م.

17. عبد العزيز جسوس، إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات، مراكش، المغرب، ط1، 2007م.

18. الطاهر وعزيز، بنيوية كلود ستراوس، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990م.

19. عبد الكريم فاضل، قراءة في كتاب: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، مقاربة بنيوية تكوينية – لمحمد بنيس مجلة ضفاف، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، المغرب، ع6، 2004م.

20.عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهمّ المدارس النّقديّة المعاصرة ورصد لنظريّاتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، (د-ط)، 2005م، ص 190و191.

21. عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، دار المعارف، مصر، (د/ط)، 1989م.

22. عمارة الناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ط1، 2007م، بيروت، ط1، 2007م.

23.عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، (د/ط)، 2010م.

24. فؤاد أبو منصور، النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوروبا، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1985،1م.

25. كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، دراسة بنيوية في الشعر، دار الملايين ، بيروت، لبنان، ط3، 1984م.

27. محمد أقضاض، مقاربة الخطاب النقدي المغربي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م.

26.محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث، دار محمد علي الحامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، تونس، ط1، 1998م.

28. محمد الواسطي، أسرار النص مقاربة بنيوية منفتحة، مطبعة آنفو برانت فاس، المغرب، ط1، 2003م.

29. محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1979م.

30. محمد عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية والحديثة وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1997م.

31. محمود طرشونة، إشكالية المنهج في النقد الأدبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، (د/ط)، 2008م.

32.مومن السميحي، المغامرة البنيوية، مجلة بيت الحكمة، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب،ع4، 1987م.

33. يمنى العيد، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

34. محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999م.

35. عبد الرحمن بوعلي، في نقد المناهج المعاصرة ،البنيوية التكوينية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 1994م.

36. سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام مارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (د/ط)، 1988م، ج3.

37 .Arkoun Mohamed, '' lectures du coran '', Edit : Maisonneuve et larouse, paris, 1982, p.5